﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝٨ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢﴾ [الواقِعَة: 8 - 12]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقال من إجمال الموقف الكونيّ إلى التّفصيل في بيان أحوال المبعوثين

المناسبة بين هذه الآيات وبين ما قبلها تظهر في نظام قرآنيٍّ بالغ الدِّقَّة، يُراعي في ترتيبه النَّفسيِّ والبيانيِّ حال السّامع وسياق الموقف. فبعد أن صوّر مشهد الهول الكونيِّ العظيم، رجّ الأرض، وبسّ الجبال، وتحوّلها إلى هباء منبثٍّ، ثمَّ أُتبِع بقوله: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ﴾، جاء هذا التَّقسيم الإجماليُّ للنّاس في مصيرهم الأخرويِّ. وهنا جاءت الآيات: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ لتُعيّن أولئك الأزواج الثَّلاثة، الَّذين جُعلوا محورًا للسّورة من أوَّلها، إذ هم المقصود النِّهائيُّ من التَّذكير والتَّهويل السّابق.. فناسب بعد الإجمال أن يُبيَّن على وجه الإيجاز أوَّلًا: من هم هؤلاء الأصناف الثَّلاثة؟ إذ ذكرهم على ترتيب يراعي التَّدرُّج من جهة المنزلة لا من جهة الذِّكر الزَّمنيِّ: بدأ بأصحاب اليمين، وهم أصحاب السَّلامة والنَّجاة، ثمَّ بأصحاب الشِّمال، وهم أهل الهلاك، ثمَّ ختم بالسّابقين، وهم أهل الفضل والقرب، فجاء ذكرهم متأخِّرًا لفظًا، وإن كانوا أعلى رتبةً.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾: جذر الكلمة هو (يمن)؛ يُمِنَ الرّجلُ فهو ميمونٌ. والمُيَمَّنُ: الَّذي أتى باليُمنِ والبَرَكة[1]، ولفظةُ ﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ الواردةُ في قولهِ تعالى: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾، من اليمين،

(1) الخليل، العين: (يمن).

ويُقال: أصحاب الميمنة: الَّذين يُعْطَون كتبهم بأيمانهم. فاليمن كأنَّه ما جاء عن اليمين[1]، ويدلُّ أصلها "على البَرَكَةِ والفضل، والميمَنَةُ من اليُمنِ، وهي البَرَكةُ، وقد تكونُ من جِهَةِ اليمين".

فلفظ ﴿ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ لا يقتصر على الجهةِ، إذ دلّت على مَقامِ أهلِ السَّعادةِ والفلاح، ممّن أيمَنُهم في الدُّنيا عملٌ، وفي الآخرةِ كتابٌ يُؤتَونَهُ بأيمانِهم، ووراءَ ذلك نَجاةٌ وسَكينة.

2) ﴿ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾: جذر الكلمة: (شأم)؛ والشّين والهمزة والميم أصل واحد يدلُّ على الجانب اليسار[2]. من ذلك المشأمة، وهي الميسرة والشُّؤمُ ضدُّ اليمن يقال: رجل مَشومٌ ومَشؤومٌ[3]. وأصحاب المشأمة: الَّذين يُعطون كتبَهم بشَمائلهم. والعرب يُسمّون اليد اليسرى: الشّؤمى، والجانب الأيسر: الأشأم، والشّؤم: ما جاء عن الشّمال[4]. وشأم قومه، شأم على قومه: جرَّ عليهم الشُّؤم، أي النَّحس، وفي المثل: (أشأم من غراب)[5]. فجاء هذا اللَّفظ دالًّا على فئةٍ مقابِلةٍ لأصحاب الميمنة، لا في الجهة فحسب، بل في الحال والمآل. فالكلمة وإن حملت في ظاهرها دلالةً مكانيَّة، إذ تشير إلى جهة الشِّمال، فإنَّها في أصلها ومعناها المقصود في الآية الكريمة تشير إلى المعنى القيَميِّ لا المكانيِّ، أي إلى من تلبّس بالشَّقاء وساءتْ عاقبتُه، فجُعل في جهةٍ تُقابل أصحاب البركة واليُمن، وهي جهة الشُّؤم والهلاك.

3) ﴿ٱلسَّـٰبِقُونَ﴾: (سبق) أصل واحد صحيح يدلُّ على التَّقديم[6]. ومعنى ﴿ٱلسَّـٰبِقُونَ﴾ المتقدِّمون، ومنه السَّبق في الفضل والشَّرف، سبقه يسبقه سبقا: تقدَّمه[7]. وفي الحديث: قال رسول الله ﷺ: «السُّبّاقُ أرْبَعَةٌ: أنا سابِقُ العَرَبِ، وسَلْمانُ سابِقُ الفُرْسِ، وبِلالٌ سابِقُ الحَبَشَةِ، وصُهَيْبٌ سابِقُ الرّومِ»[8].

(1) ابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 483.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شأم).
(3) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (شأم).
(4) ابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 483.
(5) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المُعاصرة: 2/ 1153.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبق).
(7) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (سبق).
(8) الحاكم، المستدرك على الصّحيحين، رقم الحديث: (5243).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيان أحوال النّاس ومصائرهم يوم القيامة

المعنى الإجماليُّ لهذهِ الآياتِ الكريمةِ من سورةِ الواقِعَة، هو بيانُ ما آلَ إليهِ النّاسُ بعدَ وقوعِ الواقِعَة العُظمى، حينَ انقسموا بحسبِ أعمالِهم ومنازلِهم في مراتبِ القُربِ أو البُعدِ من الرّحمةِ الإلهيّةِ، إلى أصنافٍ ثلاثةٍ لا رابعَ لها، وقد ابتدأ هذا البيانُ بذكرِ أصحابِ المَيمَنَةِ، وهم الّذين أوتوا كُتُبَهم بأيمانِهم، وفي ذلك تعجيبٌ من شأنهم، كقولك: ما زيد، ومثله: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢﴾ [الحاقّة: 1-2][1]؛ إشارةً إلى فوزِهم بالنَّجاةِ والسّلامةِ، ثمّ عَطَفَ بذكرِ أصحابِ المشأمَةِ، وهم أهلُ الشّقاءِ الّذين أوتوا كُتُبَهم بشمالِهم، دلالةً على وقوعِهم في العذابِ، وقوله: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ تعظيمٌ لهول مصيرهم، و"أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة: أصحاب اليُمن والشُّؤم؛ لأنّ السُّعداء ميامينُ على أنفسهم بطاعتهم، والأشقياء مشائيمُ عليها بمعصيتهم. وقيل: يؤخذ بأهل الجنَّة ذات اليمين وبأهل النّار ذات الشِّمال"[2].

ثمّ أُتبِعَ ذلكَ بذكرِ السّابقينَ، وهم النُّخبةُ من أهلِ الفضلِ والتّقوى، الّذينَ لم يَكتفوا بالنَّجاةِ فحسبُ، بل تسابقوا إلى الطّاعاتِ والخيراتِ، فكانوا الأسبقَ إلى مرضاةِ اللهِ، والمُقدَّمينَ في مراتبِ الجنّةِ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾، أي الّذين نالوا أعلى درجاتِ القُربِ من المولى ﷻ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الفاء ودلالتها الارتباطيّة:

تفريع البيانِ التّفصيليّ على الإجمال طريقٌ موصلٌ إلى إقناعِ المخاطَبين

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ هي فاءُ التَّفريعِ، لا فاءُ العطفِ المجرَّدِ، ودَلالتُها دَلالةٌ ارتباطيّةٌ دَقيقةٌ،

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 4/ 231.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 455.

فإنَّها تُفيدُ أنّ ما بعدها ناشئٌ عن مضمونِ ما قبلَها، فهيَ تُفَرِّعُ الكلامَ على التَّمهيدِ الَّذي تقدَّمَ في قولِه تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَٰثَةً﴾، وهي "تدلُّ على التّفسير، وبيان ما ورد على التَّقسيم؛ فكأنَّهُ قيل: لمّا تقرَّرَ أنَّكم أزواجٌ ثلاثةٌ، أي: فئاتٌ ثلاثٌ مُتميِّزةٌ، صارَ من تمامِ البيانِ أن نُفَصِّلَ هذه الأزواجَ"[1]، فجاءَتِ الفاءُ لِتفريعِ هذا التَّفصيلِ على ذِكرِ الأصلِ المجمَلِ. ووجهُ البلاغةِ في هذا التَّفريعِ أنَّهُ يُشعرُ بترتيبٍ منطقيٍّ في عرضِ المواقفِ: إجمالٌ ثمَّ تفصيلٌ، تَهيئةٌ ثمَّ بيان، كما أنَّ فيهِ ربطًا عضويًّا بينَ تقسيمِ النّاسِ وبيانِ مصيرِ كلِّ فريقٍ منهم، وهو أسلوبٌ من أساليبِ الإقناعِ المؤثِّرِ.

وتحتمل أن تكون الفاء لربط الجزاء مع التَّفصيل للإجمال، وتكون جملة ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ جوابًا لـ ﴿إِذَا﴾ الثّانية آيلًا إلى كونه جوابًا لـ ﴿إِذَا﴾ الأولى؛ لأنّ الثّانية مبدلة منها، ولذلك جاز أن يكون هذا هو جواب ﴿إِذَا﴾ الأولى فتكون الفاء مستعملة في معنييها كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾[2]. فالفاءُ حينئذٍ تَربطُ ما بعدها رَبطَ النَّتيجةِ بالسَّبب، وتُفيدُ التَّرتيبَ الذِّهنيَّ، لا الزَّمانيَّ؛ لأنَّ المذكورَ بَعدَها ليسَ واقعًا بعدَ ما قبلَها في الزَّمنِ، بل هو بَيانٌ ناشئٌ عن تقريرِ ما سبقَ.

نكتة استعمال مفردة (أصحاب):

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة (أصحابُ) دونَ (أهل)، لما تقتضيه من دلالةٍ خاصّةٍ تَقتضي التّلبُّسَ بالشّيءِ، والمُلابَسَةَ لَهُ مُلابَسَةَ الالتصاقِ والرّبطِ، ومن ثَمَّ فإنَّ وصفَ القَومِ بـ (أصحابِ المَيمَنَةِ) و(أصحابِ المَشأمَةِ) يُفيدُ أنّهُم مُتّصلونَ بتلكَ الجهَةِ وصِنفُها، متَلبِّسونَ بها، مُقترِنونَ بمصيرِها اقترانًا ثابتًا.

وأمّا لَفظُ (أهل) فهوَ، وإن دلَّ على النِّسبَةِ والانتماءِ، فإنَّهُ لا يُفيدُ دَلالَةَ اللّزومِ والالتصاقِ النّفسيِّ، كما في (أصحاب)، الّتي تُشعِرُ بأكثرَ من مجرّدِ الانتماءِ، وإنّما تُفيدُ الملازمةَ في الحالِ، والاندماجَ في الصِّفةِ، وكأنَّ المَيمَنَةَ أو المَشأمَةَ صارت وصفًا لازمًا لهم، كما يُقالُ: أصحبُ السّفينَةِ، وأصحبُ الكَهفِ، وأصحبُ النّارِ.

وفي هذا الاستعمالِ إيماءٌ إلى التّهيئةِ النّفسيّةِ لِلمآلِ، فمَن كانَ من أصحبِ المَيمَنَةِ،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 387.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 285.

فهوَ مُهيَّأٌ لِلنّجاةِ، ومَن كانَ مِن أصحبِ المَشأمَةِ، فقَد لَزِمَهُ وصفُ الشّقاءِ، وتَحقّقَ عليهِ الحُكمُ.

الصُّحبةُ تدلُّ على اللُّزومِ وتمامِ الارتباط بما يومئ إلى المآل القطعيّ

دلالة إضافة ﴿فَأَصۡحَٰبُ﴾ للفظ ﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾:

الإضافةُ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ للتَّخصيص والتَّشريف، فدَلَّت الإضافةُ على أنَّهُم صاروا مُتَميِّزينَ بهَذِهِ الصِّفَةِ، وهيَ صِفَةُ المَيمَنَةِ، وهيَ نابِعَةٌ مِنَ اليُمنِ والبَرَكَةِ والخَيرِ، فأضحَت جِهَةُ اليَمينِ هويَّةً لَهُم، واسمًا عَلَيهِم لا يُفارِقُهُم، ولا يُشارِكُهُم فيهِ غَيرُهُم؛ فإضافَةُ (أصحاب) إلَى ﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ تُفيدُ أنَّهُم أهلُ هَذِهِ الجِهَةِ، المُقترَنَةِ باليُمنِ، في مُقابِلِ أصحابِ المَشأمَةِ؛ أي أهلِ الشَّقاوَةِ والضَّنكِ.

اختصاصُ أهلِ الجنّة بميمنةِ الخير والسَّعادة

بلاغة الكناية في لفظ ﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ وشيوع استعمالها:

اليمين جهة عناية وكرامة في العرف، واشتقَّت من اليمن، أي البركة[1]. وفي تعبيره تعالى عن فريق السُّعداء بلفظ: أصحاب الميمنة تجلٍّ لبلاغة الكناية، إذ استُعملت ﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ في مقام السُّرور والبركة والنَّجاح، وذلك أنَّ اليمين في العرف مجلى اليُمن وموضع الكرامة، وممّا يُؤيِّد هذا الفهم قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩﴾ [الحاقّة: 19]. فاستعمال ﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ كناية بليغة عن الفريق الَّذي نال البِرَّ والفوز، وقد غلب في لسان العرب إطلاق (اليمين) في مقام الخير، فجاءت ﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ لتكون أبلغَ في الكناية، وأدقَّ في الإيهام، لما فيها من إثارة الرَّغبة والإجلال.

بلاغة الكناية في تعبير القرآن عن السَّعادة الأبديَّة

نكتة التَّعبير بصيغة ﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾:

آثر النَّظم الكريم استعمال صيغة: ﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ دون: (اليمين)، وذلك لنكتة بلاغيَّة رقيقة المسلك، بعيدة الغور؛ فإنَّ الميمنة أشدُّ

أصحاب الميمنة هويَّة لغويَّة مشعَّة بالبركة في النَّسق القرآنيّ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 285.

إيحاءً باليُمن والبركة والسُّرور من اليمين؛ لأنَّها صيغة تفيد المكان أو الجهة المتَّصفة بصفة اليُمن، وذلك كقولهم: مجلس الميمنة، أي المجلس الَّذي فيه الخير والتَّياسير.

وهذه الصّيغة تنفذ إلى خيال السّامع فتصوّر له حالًا ممتلئًا بالسُّرور والرَّواح، فتفيد معنًى زائدًا على مجرَّد الاتِّجاه إلى اليمين، كما أنَّ في الميمنة إشارةً إلى أنَّ أهلها في جانب الرِّضا والقبول، كما تقابلها المشأمة في جانب الرّدِّ والشَّقاوة.

غرض الاستفهام وبلاغته:

إثـارةُ الـوجدانِ، وتنبيهُ الأذهـانِ إلى عِظَمِ منزلة أهل الإيمان

إنَّ ورودَ الاستفهامِ في قولِه تعالى: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ ليسَ لمجرَّدِ الاستفهامِ عنِ الذّاتِ، وإنّما هو استفهامٌ خرجَ عن أصلِه إلى معنى التَّعظيمِ والتَّفخيم[1]، "والمعنى: أيُّ شيءٍ هُمْ؟"[2]. وهو ممّا تُنبِئُ عنهُ الأساليبُ العربيّةُ الرَّفيعةُ، إذ يُؤتَى بالاستفهامِ لا لطلبِ جوابٍ، وإنّما لتفخيمِ المسؤولِ عنهُ، وتفريغِ الذِّهنِ لتلقّي شأنٍ عظيمٍ يُشارُ إليهِ بعدَ هذا السُّؤالِ المهيِّئِ له. ومثلُه ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢﴾ [الحاقَّة: 1 - 2] ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٢﴾ [القارعة: 1 - 2] ولا يكون ذلك إلّا في مواضعِ التَّعظيم[3]. فـ "استغني هنا عن الإخبار عن كلا الفريقين بخبر فيه وصف بعض حاليهما بذكر ما هو إجمال لحاليهما ممّا يشعر به ما أضيف إليه أصحابه من لفظي الميمنة والمشأمة بطريقة الاستفهام المستعمل في التَّعجيب من حال الفريقين في السَّعادة والشَّقاوة، وهو تعجيبٌ تُركَ على إبهامه هنا لتذهب نفس السّامع كلَّ مذهبٍ ممكن من الخير والشَّرِّ، فـ ﴿مَآ﴾ في الموضعين اسم استفهام"[4].

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 445.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 404.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 10/ 194.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 286.

فالمقصودُ بهذا الاستفهامِ إثارةُ الوجدانِ، وتنبيهُ الأذهانِ إلى عِظَمِ المنزلةِ الَّتي حازها أولئكَ المذكورونَ، حتَّى لكأنَّ حالَهم يُثيرُ التَّساؤلَ تعجّبًا وتمجيدًا، فيُقالُ: من هم هؤلاءِ الَّذينَ حازوا هذا الشَّرفَ؟ وما أعجبَ أمرَهم؟ وما أكرمَ جزاءَهم؟ فكأنَّما السّائلُ يتوقُ إلى أن يُخبَرَ بما يجلّي كرامتَهم.

نكتة إظهار ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾:

آثر النّظم الكريم إظهارَ الاسمِ دون إضماره في قولِه تعالى: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾، بدل أن يُقالَ: (ما هُم) أو (ما هي)؛ لأنَّ مقام التّعجيب والتّشهير يقتضي الإظهار[1]؛ وهذا من فُنونِ البَلاغةِ البديعةِ الّتي يُقصَدُ بها تعظيمُ الشَّأنِ، وتوكيدُ المعنى، وتقريرُ الصّورةِ في الذّهنِ، إذِ الإظهارُ يُكرّرُ اللفظَ الّذي فيهِ مقامُ الفَخارِ أو الهَولِ، فيبعثُ على تدبّرِه وإعادةِ النّظرِ فيه.

تعظيم شأنِ أهل اليمين وبيان فخامةِ حالهم

فالمقامُ هنا مقامُ تمييزٍ بينَ الأصنافِ، والوقوفِ على حقيقةِ كلِّ فريقٍ، فجاءَ الإظهارُ في موضعِ الإضمارِ لإثباتِ المسمّى وتكبيرِ شأنِه، فالحديثُ ليسَ عن مجهولينَ، وإنّما عن أصحابٍ معلومينَ مذكورينَ بأوصافٍ توجبُ التَّأمُّلَ والتَّفكُّرَ في منزلتِهم.

وقد جاءَ مثلُ هذا في مواضعَ منَ القرآنِ الكريم، كقولِه تعالى: ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٢﴾ [القارعة: 1 - 2]، وكقولِه: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢﴾ [الحاقة: 1 - 2]، فالتّكرارُ مع الإظهارِ يُؤكّدُ العِبرةَ، ويُثيرُ في السّامعِ شدّةَ التَّوقُّفِ والتَّأمُّلِ، فكأنّما يُقالُ: إنّ هؤلاءِ أصحابَ الميمنةِ قد بلغوا منَ الشّرفِ ما يَجعلُ تكرارَ ذِكرِهم، وإبرازَ اسمِهم، أوقعَ في النّفسِ وأبلغَ في البيانِ.

تكتسب الواو دلالتها من فاء التّفريع والسّياق سباقًا ولحاقًا

نوعُ الواوِ ودلالتها التّفصيليّة:

الواوُ في قولِهِ تَعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ لَيسَت عَلى نِظامِ الواوِ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 286.

الّتي تُفيدُ مُطلَقَ العَطفِ بَينَ الجُمَلِ المترادِفَةِ أو المتساندَةِ، بَل هيَ في هذا المَقام واوُ عَطفٍ تُفيدُ التَّقسيمَ والتَّوزيعَ التّكوينيَّ لِلأزواجِ الثّلاثةِ الّذينَ ذَكرَهُم قَولُه تَعالى سابقًا: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَٰثَةً﴾، وقد اكتسبت هذا المعنى من التّفريع بالفاءِ في قوله: ﴿فَأَصْحَٰبُ﴾ على الأزواج الثّلاثة؛ فدلالَةُ الواوِ هُنا لَيسَت مُجرَّدَ رَبطٍ نَحويٍّ، وإنّما هيَ رابِطَةٌ بيانيَّةٌ تُسَلسِلُ تَرتيبَ الأقسامِ، وتَفصِلُ بَينَ الأصنافِ الثَّلاثة، معَ إعطاءِ كلِّ فريقٍ قَدرَهُ منَ الوَصفِ والاهتمام. فكما أُبرِزَ أهلُ السَّعادَةِ في قَولِهِ: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾، جاءَتِ الواوُ لِتَدلَّ على أنَّ مَقامَ الحَديثِ لم يَنفَصِل بَعدُ، وإنّما انسابَ إلى الوَصفِ الثّاني، الّذي يُقابِلُ الأوّلَ في الحالِ والمآلِ، وهُم: (أصحابُ المَشأمَةِ)، فهيَ واوُ تَوسيعٍ في التَّقسيمِ لا مُجرّدُ عَطفٍ، حتّى يُعلَمَ أنَّ الحديثَ مُستمرٌّ في فصلِ الأزواجِ الثّلاثَةِ، لا أنّهُ عَودٌ على بَيانٍ سالفٍ؛ فدلالتها دلالَةٌ تَركيبيَّةٌ تَخُصُّ النَّظمَ القُرآنيَّ المُحكَمَ، ومَقامَ السّياقِ المَحفوفِ بالمَوعِظةِ والوَعدِ والوَعيد.

نكتة استعمال مفردة (أصحاب):

طـول مصاحبةِ أسباب الشُّؤم يوقع المصاحب فـي المـلازمـة الدّائمة

استعمال مفردة (أصحاب) في قولهِ تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾، دونَ (أهل) تعبيرٌ موصولٌ بإيحاءٍ أدقَّ في تصويرِ الانتماءِ والسُّلوكِ الّذي بهِ استحقَّ أصحابُ كلِّ فريقٍ منزلتَهُ في الآخرةِ؛ فلفظُ (أصحاب) يُفيدُ مُصاحَبَةً دائمةً واختياريَّةً، فهيَ تشيرُ إلى تَعلُّقِهِم بطريقِهِم وموقفِهِم الّذي سَلَكوهُ في الدُّنيا، حتّى أمست المشأمةُ مصاحبةً لهم، بخلاف (أهلُ) فهيَ تدلُّ على انتماءٍ قد يكونُ بالقرارِ أو بالمقامِ، لا بالفعلِ الإراديِّ، ولا بالمعايشةِ الطَّويلةِ، وقد يُطلَقُ على مَن وُجِدَ في المكانِ ولَم يَكُن من خُلَّصِ أهلِهِ؛ فالتَّعبيرُ بالصُّحبةِ أوقعُ في هذا الموطنِ؛ إذِ المقامُ مقامُ تصنيفٍ على حسبِ المواقفِ والأعمالِ، لا عَلى حَسَبِ المواضعِ فحَسبُ.

دلالة إضافة (أصحاب) للفظ ﴿ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾:

صحبةُ المشأمة حـين يـصـير الانحرافُ هويَّةً والمعصيةُ اختيارًا

إضافةُ لفظِ (أصحاب) إلى ﴿ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ في قَولِهِ تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ يُفيدُ لُزومًا واختيارًا، لا مُجَرَّدَ وُجودٍ أو اقترانٍ عارضٍ، فهيَ تُشعِرُ بأنَّ هؤُلاءِ قَدِ اقتَرَنوا بالمشأمةِ اقترانَ مَنِ اختارَها ولازَمَها، فصارَت سِمَتَهُ وهويَّتَهُ، وكأنَّ بَينَهُم وبَينَ المَشأمَةِ عُروَةً وثيقَةً لا تَنفَكُّ، وهذِهِ الإضافةُ تُغني في المَقامِ ما لا يُغنيهِ اللَّفظُ المُفرَدُ، فهيَ تَربِطُ الشَّخصَ بالمَصيرِ، وتَجعَلُهُ كأنَّهُ مُمَثِّلٌ لِهذِهِ الجِهَةِ وصَفَتِها، لا مُجَرَّدَ نازِلٍ بها، وفي هَذا ما فيهِ مِن إثباتِ المَسؤوليَّةِ الخُلُقيَّةِ وعُمقِ التَّبِعَةِ.

فائدةُ الكناية في لفظ ﴿ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾:

التَّلميح إلى الشَّقاء بالعنوان التّعريفيّ

لفظُ ﴿ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ كنايةٌ توحي بما وراءَها مِن مَعنًى؛ لأنَّها لا تُصرِّحُ بالمَقصودِ مِنَ العَذابِ والشَّقاءِ، بَل تُشيرُ إلَيهِ مِن طَريقِ التَّلميحِ والإيماءِ، وفي هَذا ما فيهِ مِن بَلاغَةِ الإيجازِ وجَمالِ الإيحاءِ؛ فصنف "أصحاب المشأمة، وهي اسم جهة مشتقَّة من الشُّؤم، وهو ضدُّ اليمن فهو الضُّرُّ وعدم النَّفع وقد سُميّا في الآية الآتية ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ و﴿أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾، فجُعِل الشِّمال ضدَّ اليمين كما جُعِلت المشأمة هنا ضدَّ الميمنة إشعارًا بأنَّ حالهم حال شؤم وسوء، وكلُّ ذلك مستعار لما عُرِف في كلام العرب من إطلاق هذين اللَّفظين على هذا المعنى الكنائيِّ الَّذي شاع حتَّى ساوى الصَّريح"[1].

فالمشأمةُ، في لُغَةِ العَرَبِ، تُستَخدَمُ كِنايَةً عَنِ الشُّؤمِ وسوءِ العاقِبَةِ، وهيَ مُقابِلَةٌ لِلمَيمَنَةِ، الَّتي تُكنَى عَنِ السَّعادَةِ واليُمنِ، وقَد جَرَت عادَةُ العَرَبِ أن يَجعَلوا اليَسارَ مِثالًا لِلنُّحوسِ، فيَقولونَ: (تَيَمَّنَ) إذا تَفاءَلَ، و(تَيَسَّرَ) إذا تَشاءَمَ، ومِن هُنا جاءَت المشأمةُ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 285 - 286.

عَلى وجهِ الكِنايَةِ، دونَ أن يُقالَ: (أصحابُ الشَّقاءِ) صَراحَةً، لِما في ذلِكَ مِن إبقاءِ جَوٍّ مِنَ الرَّهبَةِ والتَّهويلِ يُفضي إلى تَأمُّلٍ أعمَقَ وخَشيَةٍ أشدَّ.

والكِنايَةُ في سياقِ التَّقسيمِ بَينَ أصنافِ النّاسِ تَأتي أبلَغَ في التَّأثيرِ النَّفسيِّ؛ لِأنَّها تَجذِبُ الذِّهنَ إلى ما وراءَ اللَّفظِ، وتَدعو السّامِعَ لِاستِحضارِ صوَرٍ وتَأويلاتٍ تَتَفاوَتُ بحَسبَ وعيِهِ وبَصيرَتِهِ، وهَذا أبلَغُ في الإنذارِ وأدعَى لِلتَّأثُّرِ.

نكتة التَّعبير بصيغة ﴿ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾:

آثَرَ النّظمُ الكريمُ استعمالَ صيغةِ ﴿ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ دونَ (الشُّؤمِ)؛ ذلك لأنَّ لَفظَ (الشُّؤمِ)، وإن كانَ أصرَحَ في الدّلالَةِ على المَعنَى، إلّا أنَّهُ أجرَدُ وأقَلُّ صوَرِيَّةً؛ لِأنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بالحُكمِ الذِّهنيِّ الَّذي يُسنَدُ إلى الشَّيءِ مِن خِلالِ ما يَتَرَتَّبُ عَلَيهِ، أمّا ﴿ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ فهيَ صورَةٌ مَجازِيَّةٌ تَتَضَمَّنُ الإشارَةَ إلى جِهَةٍ مَحسوسَةٍ، وتُفيدُ بالتَّضَمُّنِ مَعنَى الشُّؤمِ، ومِن ثَمَّ تَجمَعُ بَينَ التَّجريدِ والتَّجسيدِ.

بلاغة المجاز في تعميق الأثر النَّفسيِّ للتَّعبير القرآنيِّ

وَفي هَذا تَرقيَةٌ لِلتَّأثيرِ النَّفسيِّ، فإنَّ المَشأمَةَ، بلَفظِها ووَزنِها، توحي بالانحِرافِ والزَّيغِ، وتَستَحضِرُ في الذِّهنِ جِهَةً مُعَيَّنَةً مُقابِلَةً لِجِهَةِ اليُمنِ والصَّلاحِ، وهَذا مِمّا يَزيدُ في إيحاءِ التَّقسيمِ ووُضوحِ التَّفاوُتِ بَينَ الفِئاتِ.

وَزيادَةً على ذلِكَ؛ فإنَّ ﴿ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾، بوَصفِها مَصدَرًا عَلى وزنِ (مَفعَلَةٍ)، تُفيدُ حالًا أو صِفَةً مُتَجَذِّرَةً، لا حَدَثًا عارِضًا، فهيَ تُشيرُ إلى مَكانَةٍ أو جِهَةٍ هُم مُلازِمونَ لَها، وكَأنَّهُم غاصوا في هذِهِ الحالِ حَتّى صارَت لَهُم مَنسَكًا ووَطَنًا.

أمّا (الشُّؤمُ) فهوَ وصفٌ مُجَرَّدٌ يُخبِرُ عَنِ المَقلوبِ عَلَيهِ، ولا يُفيدُ بذاتِهِ تَمَثُّلًا في صورَةِ جِهَةٍ أو حالٍ، فكانَ الاستِعاضَةُ عَنهُ بـ ﴿ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ أبلَغَ وأنفَذَ في إيصالِ الدّلالَةِ.

وَبِذلِكَ نَفهَمُ أنَّ التَّعبيرَ القُرآنيَّ إذا خَرَجَ عَن الصَّريحِ إلى الكِنايَةِ أوِ المَجازِ، فلا يَكونُ ذلِكَ لِغُموضٍ أوِ التِفافٍ، بَل هوَ تَصعيدٌ لِلدّلالَةِ وتَوسيعٌ لِمَدارِكِ الفَهمِ والإدراكِ.

غرض الاستفهام وبلاغته:

من التَّقسيم إلى التَّفصيل عبر بوّابة الاستفهام

جاءَ الاستفهامُ في قولِهِ تعالى: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾؛ لإرادةِ تهويلِ الموصوفِ، وشَحْنِ الذّهنِ إلى حالِهِ العجيبِ، الّذي لا تُحيطُ به العبارةُ. إذ فخَّم أمرهم بالتَّعجيب من حالهم بقوله منبِّهًا على أنَّهم أهل لأن يُسأل عنهم فيما يُفهمه اليمين من الخير والبركة؛ فكيف إذا عبَّر عنها بصيغة مبالغة، وأكثر ما يكون ذلك في موضع التَّهويل والتَّعظيم[1].

فالاستفهامُ هو استفهامٌ يُفيدُ التَّهويل والتَّعظيم، ووجهُ البلاغةِ في هذا الموضعِ، أنّ هذا الاستفهامَ جاءَ بعد تقسيمِ النّاسِ إلى أزواجٍ ثلاثةٍ، فكانَ ذلكَ مدخلًا إلى تفصيلِ أحوالِ كلِّ فريقٍ، ولكن قبلَ أن يُشرَعَ في وصفِهم، أُثيرَ في ذهنِ السّامعِ سؤالٌ عظيمٌ عن حقيقتِهم، فصارَ الاستفهامُ مقدّمةً تُهيّئُ القلبَ للإنصاتِ، والعقلَ للتّأمّلِ، وهو من مقاصدِ القرآنِ التّربويّةِ، أن يُربّيَ الخشيةَ والخشوعَ في القلبِ قبلَ تلقّي الوصفِ.

غرض الاستفهام في الصّنفين:

أجمَعَ المُفسِّرونَ على أنَّ الاستفهامَ الأوَّلَ ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ للتَّفخيمِ والتَّعجيبِ من رِفعَةِ شأنِهِم عند اللّه يوم القيامة. وأنَّ الاستفهام الثّاني ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ للتَّفظيعِ والتَّعجيبِ من انحِطاطِ منزِلَتِهِم[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 404.

(2) الزّمخشريّ، نظم الدّرر: 4/ 53، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 189، والآلوسيّ، روح المعاني: 27/ 130.

نكتة إظهار ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾:

تهويلُ الخطاب وتفخيمُ المآل وهزُّ النّفوس للالتفات إلى مُظهرات النّظم

آثر النّظم الكريم إظهار: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ دون إضمارِها، فيُقالَ: (ما هُم؟)، وفي ذلك نُكتَةٌ بَلاغيَّةٌ تَتَّصِلُ بسياقِ التَّهويلِ والتَّفجيعِ، وتَكشِفُ عَنِ المَقصودِ في التَّركيبِ مِن تَكريرٍ وإظهارٍ دونَ إضمارٍ؛ فإنَّ إعادَةَ الاسمِ ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ عَينًا، دونَ الاكتفاءِ بالإشارَةِ إلَيهِ، تُفيدُ تَفخيمًا وتَهويلًا، عَلى نَحوِ ما يُفيدُهُ التَّعَجُّبُ والتَّركيزُ، وتُظهِرُ في النَّفسِ أثَرًا أقوَى في الإنذارِ والإيقاظِ، إذ يُصبِحُ الاسمُ محوَرًا يَتَرَدَّدُ عَلَيهِ السَّمعُ، فيَثبُتُ في القَلبِ ويُحَفِّزُ الذِّهنَ إلى التَّفَكُّرِ في عَظَمَةِ ما خَلفَهُ.

وَلا يُناسِبُ هَذا المَقامَ ما فيهِ نَوعُ تَخفيفٍ أو تَلميحٍ، كَما هوَ شَأنُ الإضمارِ، بَلِ المَقامُ مَقامُ تَصويرٍ صادِمٍ يُقَطِّبُ الجَبينَ ويَهُزُّ النُّفوسَ مِن مَراقِدِها، فجاءَ الإظهارُ فيهِ أشَدَّ وقعًا وأبلَغَ أثَرًا.

بلاغة العطف بين الفِرَق المتضادّة:

البدءُ بالتَّبشير في مقام التّهويل إيماءٌ إلى مقام الرّجاء وصفة الرَّحمة

قُدِّمَ ذِكرُ أصحابِ المَيمَنَةِ عَلى أصحابِ المَشأمَةِ في قَولِهِ تعالى: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝٨ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾، مَعَ أنَّ القياسَ في مَقامِ التَّهويلِ أن يُبدَأ بذِكرِ مَن ساءَ مَآلُهُ، لِتَشُدَّ النُّفوسُ بَعدَهُ بالبُشرَى، ولكِنَّ القُرآنَ قَد عَكَسَ هذا التَّرتيبَ؛ ليُؤَكِّدَ أنَّ الرَّجاءَ سابِقٌ على الخَشيَةِ، وأنَّ رَحمَةَ اللهِ سَبَقَت غَضَبَهُ، وهذِهِ لَفتَةٌ تَربويَّةٌ دَقيقَةٌ تَنسِجُ في طَيّاتِها أثَرًا نَفسيًّا عَظيمًا؛ فلَمّا ذَكَرَ النّاجينَ، أتبَعَهُم أضدادَهُم فقالَ: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾؛ أي: جِهَةَ الشُّؤمِ ومَوضِعهُ وأعمالهُ[1]، وفي هذِهِ المُقابَلَةِ بَينَ أصحابِ المَيمَنَةِ وأصحابِ المَشأمَةِ، تَتَجَلَّى قوَّةُ التَّصويرِ، حَيثُ تَقابَلَتِ الجِهاتُ، فصارَ الفَريقانِ على طَرَفَي نَقيضٍ، يُمَثِّلُ كُلٌّ مِنهُما وجهًا مِن حَقيقَةِ الخاتِمَةِ، فيَرسُمُ القُرآنُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 404.

خَريطَةَ المَصيرِ بَينَ سَعادَةٍ وشَقاءٍ، بلا حالٍ وسَطٍ، فهيَ إمّا مَيمَنَةٌ وإمّا مَشأمَةٌ.

بلاغة عطف (السّابقون) على المتقدَّم المتقدِّم ذكرهم:

مقامُ السّابقين تكميلٌ للقسمةِ وتتميمٌ لبيان الأحوالِ

عُطِف قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾، على ما قَبلَهُ مِنَ الأزواجِ، مَعَ فارِقِ الرُّتبَةِ وتَبايُنِ المَنزِلَةِ، وذلك لنُكتَةٍ بَلاغيَّةٍ جَليلَةٍ، تَدُلُّ على عُمقِ النَّظمِ وإحكامِ التَّصويرِ؛ فالعَطفُ في ظاهِرِهِ يُشعِرُ بالمُشارَكَةِ في الحُكمِ، كَما يَدُلُّ على ذَلِكَ ما جاءَ في كِتابِ سيبَوَيهِ: "فالواوُ يَجمَعُ هَذِهِ الأشياءَ على هَذِهِ المَعاني".[1] وفي باطِنِهِ يُثيرُ السُّؤالَ: كَيفَ يُساوَى السّابِقونَ في الذِّكرِ بمَن دونَهُم رُتبَةً؟ وفي هَذا تَأهيلٌ لِذِكرِهِم، وتَمهيدٌ لِلتَّرقيَةِ الَّتي سَتَرِدُ بَعدَ قَليلٍ في قَولِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾.

والسِّرُّ في هَذا العَطفِ أنَّهُ لَم يُرِد بِهِ مُجَرَّدَ الجَمعِ، بَل أرادَ التَّصنيفَ الشّامِلَ، فذَكَرَ أزواجًا ثَلاثَةً: ذَوي السَّعادَةِ، وذَوي الشَّقاوَةِ، وذَوي السَّبقِ والاصطِفاءِ، فالآيَةُ تَرسُمُ تَقسيمًا حاصِرًا لِأحوالِ النّاسِ يَومَ القيامَةِ، ولا تَكتَمِلُ هذِهِ القِسمَةُ حَتَّى يُذكَرَ السّابِقونَ؛ فذِكرُهم من بابِ التّتميمِ والتّكميلِ، وبيان منزلة السّابقين في المتقدِّمين.

نكتة استعمال مفردة السَّبق وفرادتها في السياق:

السَّبق اصطفاء ربّانيٌّ للمقدّمين في الطّاعات المسارعين إلى الجنّات

(السَّبق) في معناه أصلٌ في المبادرة والتَّقدّم، فهو سبق في الطّاعة، وحرص على القُرب، وتقدّم في الإيمان، لا ينتظر أمرًا، بل يسارع إليه. والقرآن حين يجعل (السَّبق) عنوانًا لهذه الفئة، فهو يُربّي في النَّفس معنى التَّنافس المشروع، الَّذي لا يتوجّه إلى المناصب أو المال، بل إلى رضا الله ومراتب القرب منه[2].

(1) سيبويه، الكتاب: 1/ 218.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 286 - 287.

وقد جاء هذا الوصف بعد ذكر الفئتين الأخريين، ليُحدث مفارقة بيانيَّة تؤكّد أنَّ هؤلاء السّابقين ليسوا ضمن ترتيبٍ عاديٍّ، بل هم فوق التَّصنيفات، أُفردوا بمرتبة المقرّبين، كما قال بعد ذلك: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾. فصار السَّبق لا مجرَّد وصفٍ، بل سببًا في القرب، ومفتاحًا للعلوِّ، ودعوة صامتة للمؤمن أن لا يكتفي بالسَّلامة، بل يسعى إلى السّيادة في مقامات الآخرة.

ولفظةُ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ وردت في سياقٍ بيانيٍّ بالغ التَّناسق، يصف أحوال النّاس ومآلهم يوم القيامة، بعد أن صوِّرت مشاهدُ التَّبدُّل الكونيّ المزلزل، لينتقل الخطاب بعد ذلك إلى التَّقسيم الثُّلاثيّ الدَّقيق: أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، ثمَّ السّابقون، فجاء ذكرهم متأخِّرًا في اللَّفظ، مقدَّمًا في المنزلة. فالسّابقون هم الَّذين تقدّموا غيرهم، لكنّ السَّبق هنا ليس مجرّدَ تقدُّمٍ مكانيّ أو زمنيّ، بل هو سبقٌ في ميدان الإيمان واليقين والعمل الصالح. وقد تكرّر لفظ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ مرَّتين على جهة التَّوكيد، فجاء النَّظم بتَكرار الاسم الموصول بالوصف: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾؛ ليفيد التَّثبيتَ والتَّعظيم، وفيه ما يدلّ على أنَّهم سابقون حقًّا لا دعوى، وأنَّهم هم وحدهم الجديرون بلقب السَّبق دون سواهم، فهم الَّذين بادروا إلى الإيمان حين أعرَض النّاس، واستجابوا للهدى حين تردّد غيرهم، وثبَتوا على الطّاعة حين نكَص الآخرون

السّابقون هم المجموعُ الخالصُ من البشريّة كلّها

بلاغة التَّعريف في لفظ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ وجمعه:

التَّعريفُ الجَمعيُّ في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ لم يأتِ لمجرَّدِ الحَصرِ، بل ليُشير إلى جماعةٍ مُتحقِّقةٍ بهذهِ الصِّفةِ، كأنَّ القرآنَ يُعلنُ: أنَّ في كلِّ زمانٍ، وفي كلِّ أُمَّةٍ، فِئةً من المتقدِّمينَ إلى اللّهِ بالطّاعةِ، الَّذين سَبَقوا غيرَهم في العملِ، فاستحقّوا القُربَ.

وهذا الأسلوبُ لا يصفُ القِلَّةَ بل يفتحُ أُفقَ الانتماءِ، ليقولَ للمؤمنِ: إنَّ بُلوغَ هذهِ المرتبةِ ليسَ وقفًا على الأنبياءِ أو الأوائلِ فحسب، بل هو مجالٌ مفتوحٌ لكلِّ مَن شمَّرَ وسبقَ، وبهذا؛ فإنَّ (السّابِقُينَ) في الآيةِ ليسوا وحدةً فرديَّةً متفرِّدةً، بل نموذجًا جمعيًّا راقيًا من أهلِ الطّاعةِ الَّذين تواصَوا بها فسابقوا الدُّنيا وأهواءَها؛ فوصلوا مبتغاهم، وأحرزوا غايتهم، فهم جمعٌ معروفٌ يجمعه الخير من آدمَ ﷺ إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها.

دلالة اختلاف النَّظم بين الأزواج الثَّلاثة:

السّابقونَ نِداءُ التَّفَوُّقِ ووَسمُ الصَّفوَةِ وكلُّ سابقٍ دونهم فليس بسابقٍ

في قولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ تتجلّى خُصوصيَّةُ النَّظمِ القُرآنيِّ، فقد عَدَلَ عن الأسلوبِ الَّذي جَرَى بهِ ذِكرُ الفِئَتَينِ السّابِقَتَين: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ و﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾؛ فلم يقل: (والسّابقون ما السّابقون) ليختارَ بدلًا من ذلك تَكرارَ اللَّفظِ نَفسِه: (السّابِقونَ السّابِقونَ)؛ وبناءً على ذلك؛ فقد قدَّر بعضهم (ما) على تقدير: (والسّابِقونَ ما السّابِقونَ)؛ لدَلالةِ ما قَبلَهُ عليه، وقيل: تقديرُه: أزواجًا ثلاثةً: فأصحابُ الميمنةِ، وأصحابُ المشأمةِ، والسّابِقونَ، ثُمَّ ذكرَ عَقيبَ كلِّ واحدٍ منهم تَعظيمًا أو تهويلًا فقال: ما أصحابُ الميمنةِ، ما أصحابُ المشأمةِ، والسّابِقونَ؛ أي هم السّابِقونَ[1].

وليسَ هذا التَّكرارُ لمُجرَّدِ التَّوكيدِ، بل هو توجيهٌ بلاغيٌّ مَقصودٌ، يُرادُ به تَعظيمُ المقامِ وتَفخيمُ المكانةِ.

فـ السّابِقونَ هنا ليسوا مُجرَّدَ أهلِ فضلٍ؛ بل هُم الصَّفوةُ الَّذينَ تَجاوَزوا حَدَّ النَّجاةِ إلى ميدانِ القُربِ، فسبقوا في الطّاعةِ، وسبقوا في الإيمانِ، وسبقوا في الإنابةِ، فاستحقّوا أن يُنادى عليهم باسمِهم

(1) الفيروزآباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 1/ 450.

مُكرَّرًا: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾؛ تَعظيمًا وتَوقيرًا. فلو قيل: (أصحابُ السَّبقِ) لفاتَ المعنى الفخم، إذ إنَّ (السَّبق) حين يُجعَلُ صفةً قائمةً بذاتِ الجماعةِ، كما في قوله: (السّابِقونَ)، يُفيدُ أنهم جَعَلوا من السَّبقِ مقامًا ثابتًا، لا مُجرَّدَ صِفةٍ عارضةٍ، فهم السّابقون على الحقيقة، وليس دونهم من يستحقّ الوصف إلّا وهو وصفٌ مجازيٌّ لا يثبت على تقادم الأيّام.

نكتة تكرار لفظ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾:

مِنَ التَّعَجُّبِ إلى التَّقريرِ مُفارَقَةُ الأُسلوبِ ودَلالَةُ التَّكرارِ في ذِكرِ السّابِقينَ

جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ بنَظمٍ مَخصوصٍ خالَفَ ما سَبَقَ، فلم يُؤتَ فيه بأسلوبِ التَّعجُّبِ، بل عُدِلَ إلى التَّكرارِ، لِما في ذلكَ من دلالةٍ أبلَغ، ومقصدٍ أعمق يتَّسق مع واقع السّابقين؛ فقد ذهبَ النُّحاةُ إلى أنَّ نحوَ هذا التَّركيبِ يُفيدُ التَّفخيمَ والإعلاءَ، كقولِهم: أنتَ أنتَ، والنّاسُ النّاسُ[1]، ممّا يدلُّ على أنَّ المُسَمَّى بلغَ في حالِه الغايةَ الَّتي يُعجَزُ عن التَّعبيرِ عنها إلّا بتَكرارِه؛ فهم الَّذينَ انتَهَوا في السَّبقِ أي: الطّاعاتِ - وبَرَعوا فيها وعُرِفَت حالُهم. فتَكرارُ لفظِ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ - سواءٌ أُخِذَ على جهةِ الخَبَرِ أو على جهةِ التَّوكيدِ[2] - يُفيدُ أمرَينِ بَلاغيَّينِ جَليلَين: تَفخيمَ الحالِ وتَعظيمَ الشَّأنِ. فهؤلاءِ لم يُتَحدَّث عنهم على وجهِ التَّعجُّبِ - كما في أصحابِ الميمنةِ والمشأمةِ - بل جاءَ الخطابُ عنهم مُقَرَّرًا، مُجَلًّى، مُثبَتًا أنَّهُم في أعظمِ مقامٍ، وأنَّهُم هُم هُم، لا يُشبَّهُ بهم غيرُهم، ولا يُلحَقُ برُتبتِهم لاحق. "والسّابقونَ السّابقونَ، يُريد: والسّابِقونَ من عُرِفتَ حالُهم وبلغَك وصفُهم، كقولِه: وعبدُ اللّه عبدُ اللّه، وقولِ أبي النَّجم: وشِعري شِعري، كأنَّه قال: وشِعري ما انتَهى إليك وسمعتَ بفصاحتِه وبراعَتِه"[3].

(1) السّمين الحلبيّ، الدرّ المصون: 10/ 195، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 18/ 378.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 74.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 458.

وعلى جعله تَوكيدًا للأوّلِ، فمآلُ جملةِ ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ ونظيرتِها، وجملةِ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ هو التَّعجيبُ من حالِهم، وطريقُه هو الكنايةُ، ولكنَّ بينَ الكنايتَينِ فرقًا؛ بأنَّ إحداهما كانت من طريقِ السُّؤالِ عن الوَصفِ، والأُخرى من طريقِ تَعذُّرِ التَّعبيرِ بغيرِ ذلكَ الوَصفِ. والمعنى: أنَّ حالَهم بلغَت مُنتهى الفضلِ والرِّفعةِ بحيثُ لا يجدُ المتكلِّمُ خَبَرًا يُخبِرُ بهِ عنهم أدلَّ على مرتبتِهم مِن اسمِ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾، فهذا الخَبَرُ أبلَغُ في الدّلالةِ على شرفِ قَدرِهم مِن الإخبارِ بـ (ما) الاستفهاميّةِ التَّعجيبيّةِ في قولِه: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾؛ معَ ما في اشتقاقِ لقبِهم مِن (السَّبقِ) مِنَ الدّلالةِ على بُلوغِهم أقصى ما يطلُبُه الطّالبون[1].

بلاغة الاستعارة في لفظ (السّابقون):

لفظ (السّابقون) في قَولِهِ تَعالَى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾، استِعارَةٌ تصريحيَّة، بتَجريدِ اللَّفظِ مِن مَعناهُ الحِسّيِّ، وإرادَةِ مَعنًى مَجازيٍّ، فإنَّ السَّبقَ في أصلِ الوَضعِ يُستَعمَلُ فيمَن تَقَدَّمَ غَيرَهُ في مَيدانٍ مَحسوسٍ، كالسَّبقِ في العَدوِ أوِ السِّباقِ.

السّابقون سابقون إلى المبادرات في الطّاعات والسَّبق إلى الجنّات

ذَكَرَ ابنُ عاشورٍ: "وَحَقيقَةُ السَّبقِ: وُصولُ أحَدٍ مَكانًا قَبلَ وُصولِ أحَدٍ آخَرَ. وهوَ هُنا مُستَعمَلٌ عَلى سَبيلِ الاستِعارَةِ، وقَد جَمَعَ المَعنَيَينِ قَولُ النّابِغَةِ:

سَبَقتُ الرِّجالَ الباهِشينَ إلَى العُلا *** كَسَبقِ الجَوادِ اصطادَ قَبلَ الظَّوارِدِ

فَيَجوزُ أن يَكونَ السّابِقونَ مُستَعمَلًا في المُبادَرَةِ والإسراعِ إلَى الخَيرِ في الدّينِ، كَما في قَولِهِ تَعالَى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ [التّوبة: 100]، ويَجوزُ أن يَكونَ مُستَعمَلًا في المُغالَبَةِ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 287.

في تَحصيلِ الخَيرِ، كَقَولِهِ تَعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المُؤمِنونَ: 61]"[1].

وَلكِنَّ المُرادَ هاهُنا: التَّقَدُّمُ في الخَيرِ والطّاعَةِ والإيمانِ والفَضائِلِ، وذلِكَ مِمّا لا يُرَى بالعَينِ، ولكِنَّهُ يُتَصَوَّرُ في مَقامِ المُسابَقَةِ إلَى المَرضاةِ الإلهيَّةِ؛ فكانَ تَشبيهُ المُؤمِنينَ المُبادِرينَ إلَى أعمالِ البِرِّ بالمُتَسابِقينَ في المَيدانِ استِعارَةً جَميلَةً تُصَوِّرُ حَيَويَّةَ الإيمانِ ونَفَسَ التَّنافُسِ في مَجالِ الفَضيلَةِ، وفيها تَشويقٌ وتَحريضٌ عَلى المُبادَرَةِ والعَزيمَةِ.

ولا يمنع من إرادةِ المعنى الحقيقيِّ، فتكون الاستعارة في عالم الشّهادةِ، وهي تشبيه المبادرة إلى الطّاعات بالسّبق، والمعنى الحقيقيِّ في عالمِ الغيبِ، وهو السّبق إلى الجنّات.

علّة حذف متعلَّق ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾:

السّابقون لقبُ الكرامةِ فلا يتعلّق به متعلّق يُقيّد دلالته ويُخصّص عمومه

حُذِف متعلَّق ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾؛ وذلِكَ لِسَبَبٍ بَليغٍ، وهوَ أنَّ حالَهُم بَلَغَ مِنَ الرِّفعَةِ والشَّرَفِ ما لا يَسَعُ التّعبيرُ عَنهُ، ولا يُدرَكُ وصفُهُ، فلَم يُذكَر لَهُم مَوصوفٌ؛ لأنَّ المُتَكَلِّمَ عَجَزَ عَن أن يُضيفَ إلَيهِم وصفًا يَليقُ بِهِم، فكَأنَّهُ قيلَ: السّابِقونَ لا يُعرَفُ ما هُم إلّا أنَّهُم السّابِقونَ، وهَذا تعبيرٌ "بمنزلة اللَّقب لهم، وليفيد العموم، أي أنَّهم سابقون في كلِّ ميدانٍ تتسابق إليه النُّفوس الزَّكيَّة"[2]. ففي حَذفِ المُتَعَلَّقِ تَركٌ لِلتَّقييدِ، وتَركُ التَّقييدِ يُفيدُ الإطلاقَ، والإطلاقُ أبلَغُ في التَّعظيمِ؛ لِأنَّهُ يَجعَلُ فضلَهُم غَيرَ مَحدودٍ، ومَجدَهُم غَيرَ مُقَيَّدٍ، فكَأنَّهُ قيلَ: هُم أهلُ السَّبقِ المُطلَقِ، لا يُدانيهِم فيهِ مُدانٍ، ولا يُنازِعُهُم فيهِ مُنازِعٌ.

دلالة ترتيب الأصناف الثّلاثة:

في قَولِهِ تَعالَى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 286 - 287.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 287 - 288.

أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝٨ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾، نَظمٌ بَديعٌ جَرَى عَلى طَريقِ التَّدَرُّجِ في التّقسيمِ والإيرادِ، فذَكَرَ أوّلًا أصحابَ المَيمَنَةِ، وهُم جُمهورُ أهلِ السَّعادَةِ، الّذينَ نالوا الرِّضوانَ والأمنَ، وقَد قُدِّموا في الذِّكرِ؛ لِأنَّهُم أكثَرُ عَدَدًا، وهُم المَقصودونَ أوّلًا بالمُخاطَبَةِ، ففي ذِكرِهِم تَسليَةٌ وتَشويقٌ لِلمُؤمِنينَ.

أصناف النّاس يوم القيامة بين عموم النّجاة، وخزي الهلاك، ومقام الاصطفاء

ثُمَّ ذَكَرَ أصحابَ المَشأمَةِ، وهُم أهلُ الشَّقاءِ والخِزي، فجاءَ ذِكرُهُم بَعدَ أصحابِ المَيمَنَةِ، على وجهٍ مِن المُقابَلَةِ التَّقسيميَّةِ، ليَتَبَيَّنَ ضِدُّهُم، ويَظهَرَ تَبايُنُ الحالَين.

ثُمَّ خُتِمَ التّقسيمُ بذِكرِ السّابِقينَ، وإنَّما أُخِّروا في الذِّكرِ مَعَ أنَّهُم أعلَى مَرتَبَةً، من أصحاب الميمنة؛ لِأنَّ ذِكرَهُم جاءَ في مَقامِ التَّنويهِ والتَّشريفِ، كَما يُؤَخَّرُ التّاجُ ليوضَعَ في آخِرِ المَوكِبِ تَفخيمًا وإعلانًا، فكانَ خِتامُ الذِّكرِ أبهَى وأبلَغَ.

بلاغة فنِّ اللَّفِّ والنَّشر:

بلاغة فنّ اللّفّ والنّشر في ترتيب المقامات ومراعاة المعاني

قَولُهُ تَعالَى: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝٨ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، وقَعَتِ الآيَةُ على أُسلوبٍ بَليغٍ مِن أساليبِ البَيانِ، وهوَ فنُّ اللَّفِّ والنَّشرِ غير المُرَتَّبِ، وهوَ أن يُذكَرَ مُجمَلٌ، ثُمَّ يُفَصَّلَ بَعدَهُ على خلاف تَرتيبِهِ.

وجملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، مستأنفة استئنافًا بيانيًّا؛ لأنّها جوابٌ عمّا يُثيره قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ من تساؤل السّامع عن أثر التّنويه بهم؛ وبذلك كان هذا ابتداءَ تفصيلٍ لجزاء الأصناف الثّلاثة على طريقة النّشرِ بعد اللّفِّ، نشرًا غير مرتّبٍ اقتضته مناسبة اتّصال المعاني بالنّسبة إلى كلِّ صنف

أقربَ ذِكرًا، ثمَّ مراعاةُ الأهمّ بالنِّسبة إلى الصِّنفين الباقيين فكان بعض الكلام آخذًا بحُجز بعض[1].

وَلَمّا كانَت طائِفَةُ السّابِقينَ هيَ الأشرَفَ والأرفَعَ مَقامًا، وكانَت هيَ الَّتي تَتَمَثَّلُ فيها كَمالاتُ القُربِ، ودَرَجاتُ الرِّضا، خُصَّت بالبِدايَةِ في التَّفصيلِ، فقيلَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، ثُمَّ يُفَصَّلُ ما لِأصحابِ المَيمَنَةِ في مَواضِعَ بَعدَ ذلِكَ، كَما في قَولِهِ: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾.

فَهَذا التَّقَدُّمُ في الذِّكرِ لِلسّابِقينَ على غَيرِهِم في التَّفصيلِ، وإن لَم يوافِقِ التَّرتيبَ الّذي جاءَ في اللَّفِّ، فإنَّهُ مِن بابِ التَّشريفِ والتَّنويهِ، فتَكونُ المُقابَلَةُ في اللَّفِّ مَحفوظَةً، ولكِنَّ التَّفصيلَ يُؤَثِّرُ فيهِ مَقاصِدُ التَّنويهِ والتَّعظيمِ.

بلاغة الاستئناف البيانيّ:

تَكرار الألفاظ يُحفِّز على معرفةِ الأحوالِ وتبيُّن الصِّفات

في قَولِهِ تَعالَى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، لَم يَجِئ تَعقيبُ الجُملَةِ الثّانيَةِ على الأولَى مُجَرَّدَ رَدٍّ لِلخَبَرِ على المُبتَدَإِ، بَل هوَ استِئنافٌ بَيانيٌّ بَليغٌ، جاءَ في مَقامِ الإشعارِ بشَرَفِ المُخبَرِ عَنهُ، وإنباءِ السّامِعِ عَن مُنتَهَى مَآلِهِ.

إذ تتجلّى براعةٌ قرآنيَّةٌ في استعمال جملة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، بوصفها استئنافًا بيانيًّا، يُجيب عن سؤالٍ خفيٍّ أودعه السّياق، كما هي سُنّة البلاغة حين تسبق الجملةُ خاطر السّامع وتُجيبُ عنه قبل أن يُعبّر[2].

فَإنَّ قَولَهُ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾، وإن كانَ في نَفسِهِ ذا دَلالَةٍ على التَّنويهِ والتَّفخيمِ، لِما فيهِ مِن تَكريرِ اللَّفظِ على وجهٍ يُفيدُ التَّعظيمَ، إلّا أنَّهُ لَم يُبَيِّن في نَفسِهِ ما هيَ مَرتَبَتُهُم عِندَ اللهِ، فكانَ مَقامُ السّامِعِ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 287.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 287.

يَتَطَلَّبُ بَيانَ مَنزِلَتِهِم، والإشعارَ بحَقيقَةِ السَّبقِ الَّذي وُصِفوا بِهِ، فجاءَ قَولُهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ على سَبيلِ الاستِئنافِ البَيانيِّ، كَأَنَّهُ جَوابُ سائِلٍ يَقولُ: ومَن هُم السّابِقونَ؟ فقيلَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾.

دلالة التَّعبير باسم الإشارة البعيد دون الضَّمير:

التّنويه بحالِ السّابقين ورفعة مقامهم وعلوّ منزلتهم

استُعمِلَ اسمُ الإشارَةِ لِلبَعيدِ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾، مَعَ أنَّ مَرجِعَ اسمِ الإشارةِ ذُكِرَ قَريبًا وهوَ قَولُهُ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾، فيُسأل عن نكتة استعمال اسم الإشارة فضلًا عن كونه للبعيدِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ دونَ أن يُقالَ: (هُمُ المُقَرَّبونَ) ؟ فالجَوابُ: أنَّ ذلِكَ لَيسَ على سَبيلِ البُعدِ الحِسّيِّ، وإنَّما هوَ بُعدٌ مَعنَويٌّ، يَتَضَمَّنُ تَرفيعَ المَرتَبَةِ وتَفخيمَ الشَّأنِ. "وفي جعل المسند إليه اسمَ إشارةٍ تنبيهٌ على أنَّهم أحرياء بما يخبر عنه من أجل الوصف الوارد قبل اسم الإشارة وهو أنَّهم السّابقون"[1]. والعَرَبُ تَستَعمِلُ اسمَ الإشارَةِ لِلبَعيدِ في مَقامِ تَعليَةِ المَنزِلَةِ وتَنويهِ الذِّكرِ[2]، كَما في قَولِهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: 5]، فكانَ في قَولِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ إشارَةٌ إلَى سُموِّ دَرَجَتِهِم وتَعَذُّرِ الوُصولِ إلَيها، وكَأنَّهُم بمَنزِلَةٍ بَعيدَةِ الأمَدِ لا يُطالُها كُلُّ أحَدٍ، وفي ذلِكَ تَشويقٌ لِلمُؤمِنينَ، وتَحفيزٌ لِلسَّيرِ نَحوَ المَراتِبِ العُليا. كَذلِكَ، فإنَّ في استِعمالِ اسمِ الإشارَةِ لِلبَعيدِ تَفسيرًا بَيانيًّا لِذِكرِ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾، فكَأنَّ السّامِعَ قَد تَساءَلَ: وما جَزاءُ هؤُلاءِ؟ فجاءَ الجَوابُ مُشيرًا إلَيهِم إشارَةً تُظهِرُ عُلوَّهُم وتُفاخِمُ شَأنَهُم، فقيلَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾.

بلاغة استعمال مفردة ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾:

تجلّت بلاغة القرآن في اختيار لفظ ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ دون غيره من الألفاظ المقاربة مثل (النّاجون) أو (الفائزون)، إذ إنَّ هذا اللَّفظ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 287.
(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 83.

من السَّبق إلى القرب بلاغة الاصطفاء والتَّكريم في النَّظم القرآنيّ

يفيد رتبةً مخصوصةً لا يُنالها إلّا من بلغ الغاية في الإيمان والطّاعة، فهو دالٌّ على خصوصيَّة الاصطفاء، لا على مجرَّد السَّلامة أو النَّجاة. والقرب: ضدُّ البعد[1]، فلفظ ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ اسمُ مفعول، يدلّ على أنَّ القُرب هبةٌ من الله، لا ثمرةٌ لجُهدٍ وحده، بل تشريفٌ واجتباء، أسبغته الرّحمةُ على السّابقين لما علم اللّهُ منهم من صدق المسير، وصفاء القلب، ومجاهدة النّفس.

نكتة التّعبير بصيغة ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾:

منَّةُ الله تعالى في التّقريب تلحقُ السّابقين وتُحيط بالمُسارعين

آثر النَّظم الكريم صيغة: ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾، دون صيغة (القَريبون)، مع فصاحته الظّاهرة؛ وذلك لحِكمَةٍ بَيانيَّةٍ دقيقة، تُعَبِّرُ عن عُلوِّ المَقام، وخُصوصيَّةِ الاصطِفاء، لا مُجَرَّدِ القُربِ العارِضِ أو الذّاتيِّ، "فالمُقَرَّب: أبلغُ مِن القَريبِ لدلالَةِ صيغَتِه على الاصطِفاءِ والاجتِباءِ، وذلك قُربٌ مَجازيّ؛ أي شُبِّه بالقُربِ في مُلابَسَةِ القَريبِ والاهتِمامِ بشُؤونِه؛ فإنَّ المُطيعَ بمُجاهَدَتِه في الطّاعَةِ يكونُ كالمُتَقَرِّبِ إلى الله؛ أي طالِبَ القُربِ منه، فإذا بلغَ مَرتَبَةً عاليَةً من ذلك قرَّبَهُ اللّه؛ أي عامَله مُعامَلَةَ المُقَرَّبِ المَحبوب"[2].

فـ (القَريبون) صفة مشبّهة، تُفيدُ قُربًا يقعُ من الذّات، دونَ أن يلزَمَ منه إكرامٌ أو رَفعُ منزلة، بل قد يكونُ قُربًا مَكانيًّا أو طَبيعيًّا.

أمّا ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ فهو اسمُ مفعول، يَدُلُّ على أنَّ القُربَ لم يكُن بحَرَكَةٍ منهم فحَسب، بل بفضلٍ من الله وتشريفٍ من لدُنهُ، أي إنَّهُم قُرِّبوا، فكانَ قُربُهُم علامةَ اصطِفاءٍ، ومظهرَ إكرام. "ولم يقل: المُتَقَرِّبون، بل قال: أولَئِكَ المُقَرَّبون – وهذا عينُ الجَمع – فعَلِمَ الكافَّةُ أنَّهُم بتَقريبِ رَبِّهِم سَبَقوا – لا بتَقَرُّبِهِم"[3].

(1) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: 6/ 388، وابن فارس، مقاييس اللّغة: 5/ 81.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 288.
(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 3/ 518.

فكان التّعبير أدقّ من: (القريبون)، إذ فيه إشعارٌ بالتّكريم الإلهيِّ، لا مجرَّد قربٍ بالوصف، بل قُربٌ بالاختيار والمحبّة.

بلاغة القصر في جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾:

إثبـاتُ الـقُـربِ الـخـاصِّ ونَـفـيُ المُشارَكَةِ في حقِّ المكلّفين

يَتَجَلَّى الأُسلوبُ البَلاغيُّ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ في صورَةٍ مِن صوَرِ القَصرِ الحَقيقيِّ، الَّذي يُفادُ بتعريفِ الجزأين، وانعَقَدَ بذَلِكَ مَعنَى القَصرِ، وصارَ مَدلولُ الجُملَةِ: لا مُقَرَّبونَ على الحَقيقَةِ إلّا أولَئِكَ السّابِقونَ من المكلّفين، فيخرج وصفُ المَلائِكَةِ بأنَّهُم مُقَرَّبونَ؛ لأنَّهم ليسوا مكلَّفين.

وَهَذا القَصرُ يُفيدُ الاختِصاصَ والتَّشريفَ، لا مُجَرَّد نَفيِ القُربِ عَن غَيرِهِم نَفيًا مُطلَقًا، بَل لإثباتِ قُربٍ خاصٍّ لا يُنالُ إلّا بالمَقامِ الأسمَى، مَقامِ السَّبقِ في الإيمانِ والطّاعَةِ، مَقامٍ لا يُدانيهِ مَقامٌ. فأصحابُ المَيمَنَةِ، وإن كانوا مِنَ النّاجينَ، إلّا أنَّهُم لَيسوا مِن أولَئِكَ الَّذينَ اختَصَّهُمُ اللّه بالقُربِ، وهوَ قُربُ الزُّلفَى والرِّضوانِ، قُربٌ يُفيضُ بِهِ الجَلالُ الإلَهيُّ على مَن اصطَفاهُم مِن عِبادِهِ.

نكتة حذف متعلّق ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾:

تَعظيمُ القُربِ وتَوسيعُ دائِرَةِ الكَرامَةِ ليكونَ عُنوانًا على السّابِقين

لَم يُذكَر مُتَعَلِّقُ ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾؛ "لِظُهورِ أنَّهُ مُقَرَّبٌ مِنَ اللّه، أي: مِن عِنايَتِهِ وتَفضيلِهِ، وكَذَلِكَ لَم يُذكَر زَمانُ التَّقريبِ ولا مَكانُهُ لِقَصدِ تَعميمِ الأزمانِ والبِقاعِ الاعتِباريَّةِ في الدُّنيا والآخِرَةِ"[1]. فجاءَ هَذا الحَذفُ لِمَقصودٍ بَلاغيٍّ يُرادُ مِنهُ تَعظيمُ القُربِ وتَوسيعُهُ، ليَشمَلَ كُلَّ أوجُهِ الكَرامَةِ الإلَهيَّةِ، ويَجعَلَ المُتَلَقّي لِلخِطابِ يَتَأمَّلُ في المَعنَى ويَتَوَسَّعُ فيهِ، دونَ أن يُحصَرَ في وجهٍ واحِدٍ مِن وُجوهِ القُربِ. وكَأنَّ المَعنَى: هَؤُلاءِ مُقَرَّبونَ مِنَ اللّه، ومِن رَحمَتِهِ، ومِن عِنايَتِهِ، ومِن مَلائِكَتِهِ، ومِن مَظانِّ الرِّضا

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 288.

والرِّضوانِ، ومَقاماتِ التَّشريفِ، ومَراتِبِ الرُّؤيَةِ والمُجالَسَةِ، في الدُّنيا والآخِرَةِ، وليكونَ اللَّفظُ عُنوانًا عليهِم دونَ سواهُم.

فائدة الخبر الثّاني:

دفع توهُّم الانشغال بالملذّات المعنويّة عن النّعيم المحسوس

جاءت الجملة القرآنيَّة ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ بعد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾؛ لتكون خبرًا ثانيًا أو حالًا من الخبر الأوَّل، وعلى الإعرابين ففيها مزيد فائدةٍ خبريّة، بقطع النّظر عن الإعراب الصّناعيّ، وإيقاعه بعد وصف ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ يُشير إلى أنَّ مضمونه من آثار التّقريب المذكور[1]، وهي إضافة بلاغيَّة فائقة التّناسق، تكشف عن بعض آثار هذا القرب الإلهيِّ، وتُفصّل ما أجمله المقام السّابق. فإذا كان ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ يدلُّ على شرف القرب والمقام الرَّفيع، فإنَّ قولَه: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ يكشفُ أنَّ هذا القرب لم يجرِّدهم من النَّعيم، بل هو قربٌ تتبعه أعظم مظاهر الجزاء. فهم أهل الرّوح والرَّيحان، والرِّضا والرِّضوان، والجوار والجنان، وبه يندفع وهْمُ أنَّ المقرَّبين مشغولون بمقامهم عن نعيم الجنَّة، فجاء هذا البيان ليردّ ذلك التَّوهُّم، ويُثبت أنَّ هؤلاء يجمعون بين شرف القرب وجمال النَّعيم، في أكمل صور السَّعادة.

بلاغة استعمال حرف الظَّرفيَّة:

المقرّبون في النَّعيم إحاطةٌ مقامٍ لا مجرّد مكان

ورَدَ في قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ استعمالُ حرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي﴾ وهي للوعاء[2]، دلَّ على ما هو أعمقُ من مجرَّدِ الدَّلالةِ المكانيَّة، إذ احتوى في طيّاته إشعارًا بالاستقرارِ والتَّمكين، بل التَّشريفِ المكين، فكان القوم في الجنَّة لا على أطرافها، ولا عابري نعيمها، بل في سويداء أنحائها، محاطين ببهجتها إحاطةَ اللُّبّ بالقشر، لا ينفصلون عن النَّعيم ولا ينفكُّ عنهم؛ فأفاد حرف الظّرفيّة التَّمكُّن

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 289.

(2) سيبويه، الكتاب: 2/ 308، والمُبرِّد، المقتضب: 4/ 139.

الكامل، كما يُقال: هو في دار الإمارة، لا بمعنى المرور بها، بل المقام فيها والاستيطان، وهذا أبلغ ممّا لو قيل: عند جنّات النَّعيم أو إليها، فإنَّ ذلك يوهم الحضور دون استغراقٍ ولا تمكين.

دلالة إضافة ﴿جَنَّٰتِ﴾ إلى لفظ ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾:

حلولُ النَّعيم في الجنَّات حلولٌ حقيقيٌّ وثباتٌ سرمديّ

أُضيف لفظ ﴿جَنَّٰتِ﴾ إلى لفظ ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾، من باب إضافة الظَّرف إلى ما يحلّ فيه، إذ النَّعيم حالٌّ في هذه الجنّات لا يفارقها، فصار النَّعيم مقيمًا فيها استقرار المَلِكِ في ملكه. فهذه الإضافة بمعنى (في)؛ وذلك لأنَّ المضاف إليه ظرف وقع في المُضاف[1]، فهي ليست جنّات فحسب، بل جنّاتٌ مختصَّة بالنَّعيم، مؤهَّلة له، لا يشوبها نصب، ولا يعتريها كدر، كأنّ النَّعيم فيها لا يُتصوَّر في غيرها. وفائدتها أنَّ الجنَّة في الدُّنيا قد تكون للنَّعيم، وقد تكون للاشتغال والتَّعيُّش بأثمان ثمارها، بخلاف الجنَّة في الآخرة فإنَّها للنَّعيم لا غير[2].

غرض جمع ﴿جَنَّٰتِ﴾:

تنوّع الجنّات وتعدّدها تكثير النِّعَم في المحسوسات والمعنويّات

جاء التَّعبير بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، ولم يقل: (جنَّة النَّعيم)؛ وذلك لحكمة بلاغيَّة بليغة، تُفصح عن معانٍ متعدِّدة وأغراض دقيقة، تتناسب مع المقام والمقام؛ فجمع ﴿جَنَّٰتِ﴾ يُفيد تعدُّد المواضع وتنوُّع مظاهر النَّعيم؛ فهي جنّات لا جنَّة واحدة، ولكلِّ جنّة منها شأن، ففيها ما تشتهيه الأنفس وتلذُّ الأعين من مساكن وقصور، وأنهار وظلال، ومطعومات ومشروبات، وأنس وقرب، وسلام من ربٍّ رحيم، وكلُّ ذلك في مراتب متفاوتة تناسب درجات المقرَّبين، فاستعمال الجمع يدلُّ على التّكثير، وفيه إعلاءٌ لمقام أهلِ القرب، كأنَّ لكلِّ واحدٍ منهم جنَّتَه الخاصّة الَّتي لا يُزاحَم فيها، ولا يُشارك في نعيمها.

(1) ابن عقيل، شرح ابن عقيل: 2/ 3، والرّضيّ، شرح الرّضيّ على الكافية: 1/ 298 - 299.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتح الغيب: 29/ 391.

فائدة استعمال مفردة ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾:

تعظيم حقيقة النّعيم والتّنويه بفخامةِ شأنه

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ في قوله: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، مفردًا منكّرًا، دون اسمٍ من أسماء الجنان كـ(عدن) أو (الفردوس)؛ وذلك لمقصد بلاغيّ بديع، فيه دلالة على الإطلاق والتَّعميم، لاختصاص المقام ببيان حقيقة النّعمة لا بموضعها.

وجذر الكلمة (نعم)؛ والنّون والعين والميم فروعه كثيرة، وهي على كثرتها راجعة إلى أصل واحد يدلُّ على ترفُّهٍ وطيب عيش وصلاح[1]. فالنَّعيم - وإن كان مظروفًا في الجنَّة - إلّا أنَّ الغرض هنا تعظيم حقيقته لا تعيين محلّه، إذ المقرَّبون قد استكملوا أسباب القرب، فكان جزاؤهم نعيمًا مطلقًا، لا تقييد فيه بمكان ولا تخصيص بزمن، بل هو نعيم شامل تامّ في كلِّ جوانبه: في النَّظر، والسَّمع، والمأوى، والرِّضوان، والنَّظر إلى وجه الله الكريم. ولما في الإطلاق من الإبهار، وفي الإبهام من التَّشويق، وفي عموم اللَّفظ من سَعة المعنى، إذ يتناول ما عُرف من النَّعيم وما لم يُدرَك، وما خُيّل وما لم يخطر على قلب بشر.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السّابق والمسارع:

سـرّ التَّكرير وبلاغة اختيار لفظ (السّابقون) في قوله تعالى ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾

السَّبق في لسان العرب يدلّ على التَّقدُّم في الشَّيء، والأخذ فيه قبل غيره ويكون ذلك مطلقًا، فيكون السّابِق في أصل اللُّغَة قد اقتضى مَسبوقًا[2]. لا تُشترط فيه العجلة أو السُّرعة الظّاهرة، بل تكفي فيه المبادرة والتَّقدُّم، ولو بهدوء وثبات. وأمّا (المسارعة) فهي تدلّ على العجلة في الشَّيء، والمسابقة فيه[3]، والمغالبة في الوصول إليه، وإن لم يكن المتسارع أوَّل الدّاخلين فيه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نعم).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: 1/ 120.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سرع).

فمن هذا الوجه، كان (السّابق) أبلغَ في الدّلالة على التَّقدُّم الذّاتيِّ، والاختصاص بالرُّتَب الأولى، وأدلّ على الثَّبات والاستمرار، وأعمّ في المعنى من (المسارع)، الَّذي قد يشارك فيه كثيرٌ ممَّن تلهَّف، ولو لم يوفَّق للسَّبق الحقيقيِّ.

وفي تكرير قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ تنبيه على أنَّ هذا الوصف قد استقرَّ فيهم، فهم المتحقِّقون به في أقصى مراتبه، لا ممَّن سبَق مرَّةً ولَحِق، بل هم ممَّن سبق واستمرَّ، وتقدّم وثبَت، فصار لهم السَّبق سجيَّة، ولم يكن طارئًا أو عارضًا.

ولمّا كان المقام مقامَ تمييزٍ بين أصناف الخلق الثَّلاثة: أهل الميمنة، وأهل المشأمة، والسّابقين، جيء لهذا الفريق بالوصف الأخصِّ، ليدلّ على رفعة درجتهم، وشرف منزلتهم، إذ هم الصَّفوة الَّذين سبقوا في الإيمان، وسارعوا في الطّاعة، وثبّتوا أقدامهم في مراتب القُرب، حتَّى نالوا الزُّلفى عند الله، فكان جزاؤهم كما قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾.

فأمّا (المسارعون)، فإنَّما يُذكر وصفهم في مقام الحثّ والمنافسة، فذلك خطاب لمن لم يبلغ الرُّتبة، وندبٌ له إلى المسارعة. وأمّا من بلغ الذِّروة، وتحقَّق بالسَّبق، فقد خرج من مقام التَّوجيه إلى مقام البيان والثَّناء.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والخمسون،
سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 59 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-648-68-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 59 : المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-648-68-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7377148 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"